الرمال المتحركة

The Quicksand

تأليف: إديث وارتون

Edith Wharton

ترجمة: حسن عبد الهادي

١

حين انعطفت عربة السيدة كوينتن عائدةً إلى البيت من المتنزّه إلى الجادة الخامسة، تبيّنت في الغسق قامة ابنها الطويلة تسير أمامها. كانت خطوته الواسعة تقطع الأرض أسرع من عادته، وخطر لها أنه إن كان عائدًا إلى البيت في هذه الساعة، فذلك لأنه يريد أن يراها.

لم تكن السيدة كوينتن امرأةً خيالية، لكنها كانت أحيانًا تحسّ بحاسّة سادسة تمكّنها من التقاط أخفى ارتعاشات دوافع ابنها. وكانت أذكى من أن تتوهم أنها الأم الوحيدة التي تملك هذه الموهبة، لكنها سمحت لنفسها بالاعتقاد أن قليلات يستعملنها بمثل حصافتها. فإن لم تستطع إلا أن تسمع أفكار آلان، فقد كان لديها من الشجاعة ما يدفعها إلى الاحتفاظ باكتشافاتها لنفسها، ومن اللباقة ألّا تفترض شيئًا مما يكمن تحت سطح حديثهما المعلن. كانت تعرف أن أكثر الناس يفضّلون أن تُقرأ رسائلهم على أن تُقرأ أفكارهم. وعلى هذا التحفّظ الأنثوي الفائق كان آلان يكافئها بأن يكون «آلان». ولم يكن ثمة مكافأة أتمّ من ذلك. كان مفتاح معنى الحياة، وكان المبرِّر لكل ما كان سيبدو عصيًّا على الفهم وبغيضًا، لولا أن كل ذلك قد تجسّد فيه تجسّدًا كافيًا وافيًا. كان ابنًا كاملًا، والسيدة كوينتن لم تكفّ يومًا عن التعطّش إلى الكمال.

وكان بيتها، على نحو متواضع، يشهد على هذا التوق. كان المرء يحسّ أنه ثمرة سلسلة من الحذف والتنقية: لا شيء فيه جاء بالمصادفة في امتزاج خطوطه وألوانه. وكان هذا الصقل شبه المرضي لكل تفصيل مادي في حياتها يوحي بأن طاقات متنوعة، تحت ضغط ظرف ما، قد دُفعت إلى مجرى ضيق من هواية التذوّق السطحي. وكان في دقّة السيدة كوينتن عيب هو أنها أحادية الجانب. فأصدقاؤها لم يكونوا دائمًا أهلًا للكراسي التي يجلسون عليها، وكانت تتغاضى في معارفها عن عيوب لا تحتملها في تحفها الصغيرة. بل إن بيتها لم يكن أبدًا بمثل هذا الرقيّ إلا وهو خالٍ، وكان في أحسن حالاته في الصمت الدافئ المضاء بالنار الذي استقبلها الآن.

وصل ابنها إلى عتبة الباب قبلها، فتبعها إلى غرفة الجلوس وارتمى في مقعد قرب المدفأة، بينما خلعت هي فراءها وانشغلت بمائدة الشاي. ولبرهة لم يتكلم أحد منهما. لكنها نظرت إليه من فوق الإبريق فلاحظت أنه يحدّق في الجمر بنظرة لم ترها على وجهه قط، مع أن ملامحه الفتيّة المتكبّرة كانت مألوفة لديها كأفكارها. وامتدّت النظرة إلى جلسته المسترخية، وإلى تهدّل يديه الطويلتين الرقيقتين، وإلى ميل رأسه الكئيب على الوسائد. كانت كأنها المقابل المعنوي للتعب

الجسدي: بدا، كما كان هو نفسه سيقول، منهَكًا منتهيَ القوى. وكان هذا المظهر غريبًا جدًّا عن عزيمته المشرقة التي لا تلين، حتى شعرت السيدة كوينتن بحضور غريب عليها، وجب أن تراقب نفسها أمامه وأن تقيم على عجل حواجز في وجه اقتراب دخيل. وكان من مساوئ شدة الألفة بينهما أن أي صدع فيها يبدو هوّة.

اعتادت أن تترك أفكاره تدور حولها قبل أن تستقر كلامًا، فجلست الآن في ترقّب ساكن، كأن أي صوت قد يبدّد تلك الأفكار.

وأخيرًا قال، من غير أن يرفع عينيه عن النار: «يسعدني جدًّا أنكِ امرأة طيبة من الطراز القديم، ذات حدس سديد. إنه لمؤلم أن أراهنّ يفكّرن.»

كان خوفها قد سبقه. «هوب فينو...؟» قالتها بتلعثم.

أومأ برأسه: «كانت تفكّر، وبجدّ. كان الأمر مؤلمًا لي على الأقل، ولا أظنها استمتعت به، فهي نفسها قالت إنها لم تستمتع.» مدّ قدميه نحو النار. «وخلاصة تأملاتها أنها لن تقبلني. وصلت إلى ذلك بالاستدلال المحض، فالمسألة ليست مسألة مشاعر، كما تفهمين. أنا الرجل الوحيد الذي أحبّته في حياتها، لكنها لن تقبلني. أي الروايات كنتِ تقرئين وأنتِ صغيرة يا أمي؟ أنا واثق أن الأمر كله يتوقف على هذا.

لو كانت قد نشأت على تروللوب ووايت ميلفيل بدل تولستوي والسيدة وورد، لكنا الآن جالسَين على الأريكة بابتذال، نجرّب خاتم الخطوبة.»

التزمت السيدة كوينتن الصمت أول الأمر، إذ غلبها غضب الأم الغريزي لأن فتاةً لم ترغب بها لابنها تجرّأت على رفضه. ثم قالت: «احكِ لي يا عزيزي.»

«يا سيدتي الفاضلة، عندها وساوس ضمير.»

«وساوس ضمير؟»

«ضد الجريدة. هي تعترض عليّ بصفتي الرسمية مالكًا لجريدة «الراديتر».»

لم تشاركه أمّه ضحكته.

«وقد وجدت حلًّا بالطبع، فهي تفيض بالحلول. كان عليّ أن أترك الجريدة، ونعيش بعدها في سعادة دائمة على الأطعمة المعلّبة والفضيلة. وكان عندها حتى بديل جاهز، فالنساء مليئات بالحيل! أن أحوّل «الراديتر» إلى منبر مستقل، وأديرها بخسارة لأُري الناس كيف ينبغي أن تكون الصحيفة النموذجية. أظنها فضّلت هذه الخطة

على الأولى، لأنها أكثر إزعاجًا وأكثر تحدّيًا. لم يعد من الموضة اليوم أن يكون المرء صالحًا في الخفاء.»

قالت السيدة كوينتن لنفسها: «ما كنت أعرف أنه يهتم إلى هذا الحد!» ثم تمتمت بصوت مسموع: «يجب أن تمنحها وقتًا.»

«وقتًا؟»

«كي تُخرج أحكامها القديمة المسبقة وتفسح المكان لأحكام جديدة.»

«يا أمي العزيزة، أحكامها هي جديدة تمامًا، وهذه هي المشكلة. إنها عصرية إلى أبعد حد. تقرأ كل مجلات الأخلاق الرائجة، وترتدي أحدث صيحات الأخلاقيات.»

ضاع استياؤها في تعرّجات استعارته. «هل هي متديّنة إلى هذه الدرجة؟»

«يا أمي القديمة الطيبة! إنها لا دينية تمامًا، وهذه هي المشكلة. المرأة المتدينة يمكنك أن تقنعها بأي شيء تقريبًا، فهناك عادة التصديق تشتغل عليها. أما حين يتزعزع إيمان الفتاة بالطوفان، فمن الصعب جدًّا أن تُلهمها الثقة. تُشعرك بأنها، قبل أن تؤمن بك، من واجبها، بدافع أمانتها الفكرية بوصفها لاأدرية، أن تتحقق: ألست قد

عفا عليك الزمن؟ أو أن النص ليس محرّفًا؟ أو أن أحدًا لم يثبت بالدليل القاطع أنك لم تكن موجودًا أصلًا؟»

صمتت السيدة كوينتن مرة أخرى. كانا يتحركان في جوّ من المضمرات والمسلّمات، حيث قد تثير أخفّ كلمة غبار انطباعات لا تُحصى تراكمت في الذاكرة، وكان الكلام بينهما أحيانًا أصعب مما كان سيكون لو كانت صلتهما أقل قربًا.

وبعد قليل غامرت قائلة: «أهو مستحيل؟»

«مستحيل؟»

كانت تستعمل كلماتها بحذر، كأنها أسلحة قد تنزلق فتجرح. «ما تقترحه.»

رفع ابنها نفسه والتفت إليها لأول مرة. تلاقت نظراتهما في لحظة إدراك مفاجئ. إذن هو معها ضد الفتاة! فاض رضاها في همسة حنان.

«طبعًا لا يا عزيزي. لا يستطيع المرء أن يغيّر... أن يغيّر حياته...»

«أن يغيّر نفسه،» صحّح لها. «هذا ما أقوله لها. ما فائدة أن أترك الجريدة إذا بقيت على وجهة نظري؟»

شدّها هذا التمييز النفسي. «وأيهما يزعجها أكثر؟»

«آه، الجريدة، في الوقت الحاضر. أما وجهة النظر فتتعهد بتعديلها بعد ذلك. كل ما تطلبه أن أتخلى عن هرطقتي، أما نعمة الهداية فستأتي لاحقًا.»

جلست السيدة كوينتن تحدّق في فنجانها الذي لم تلمسه. كانت كلماته الأولى قد أثارت فيها شعورًا كالهلوسة بأنها تكافح وسط زحام لا يراه. كان فظيعًا أن تجد نفسها محاصَرة بتأثيرات لا يُدركها، ومع ذلك فلو كان شيء قادرًا على زيادة بؤسها لكان اكتشافها أن أشباحها صارت مرئية له.

وكأنها تريد صرف انتباهه، سألته على عجل: «وأنت؟»

وقع جوابه عليها أشبه بصدمة استحضار شبح: «سألتها فقط ما رأيها فيكِ.»

«فيّ أنا؟»

«إنها تُعجَب بكِ إعجابًا شديدًا، كما تعلمين.»

ظهر على خدّ السيدة كوينتن لحظةً بقيةُ ضوء من أيام صباها، فالمديح الذي ينقله ابنها يكتسب شيئًا من فضل ناقله. «حسنًا؟» قالت مبتسمة.

«حسنًا، أنتِ لم تجعلي أبي يتخلى عن «الراديتر»، أليس كذلك؟»

تصلّبت الأم، وعادت بالحديث من طريق ملتوٍ: «هي لا تأتي إلى هنا أبدًا. فكيف تعرفني؟»

«إنها فقيرة جدًّا! وتخرج قليلًا.» نهض واتكأ على رف المدفأة، وأزاح بأصابعه، في نفاد صبر، تمثالًا برونزيًّا نحيلًا لمصارع يقف على قاعدة من حجر البورفير بين قطعتين دافئتي اللون من العاج الإسباني. «ثم إن أمها...» أضاف كأنه لا يقصد.

«أمها لم تزرني قط،» أتمّت عنه السيدة كوينتن.

هزّ كتفيه. «السيدة فينو أفقها كأفق دمية من الشمع. وقاعدة سلوكها مأخوذة من مطرّزة جدّتها.»

«لكن الابنة عصرية جدًّا، ومع ذلك...»

«والنتيجة واحدة؟ ليس تمامًا. إنها تُعجب بكِ، وبشدّة!» أعاد التمثال إلى مكانه والتفت إلى أمه مبتسمًا. «ألستما معًا في لجنة مستشفى ما؟ أكثر ما أثّر فيها طريقتك في فعل الخير. تقول إن الإحسان ليس خطّ سلوك بل حالة ذهنية، ويبدو أنكِ من المصطفَين.»

وكما يبدو أن الألم الجسدي المبهم يخفّ حين تتركز حدّته في وخزة عصب واحد، شعرت السيدة كوينتن فجأة بالراحة من فورة غضب على الفتاة. «لو كانت تحبك...» بدأت.

أوقفتها إشارة منه. «لا أطلب منكِ أن تجعليها تفعل ذلك.»

ساد الصمت بينهما من جديد، وهما يتقابلان وسط فوضى كارثة مشتركة، كأن أفكارهما، لدى نداء الخطر، اندفعت عارية إلى الفعل. وفي هذه اللحظة الكاشفة رأت السيدة كوينتن لأول مرة كم من عناصر شخصية ابنها بدت مفهومة لها لمجرد أنها مألوفة: كما نفعل حين نقرأ بلغة أجنبية، فنفترض معنى بعض الكلمات حتى يصحّحنا السياق. ومهما كانت تأملاتها الأمومية قد صوّرت سلوكه في حالة بعينها، فقد وجدت نفسها الآن عاجزة عن توقّعه، ومع هذا الفشل في الحدس جاء الإحساس بالتبعية التي لم تجعل نصائحها حتى الآن سوى استباق لرغبته. وانفلت يأسها في أنّة: «ماذا تطلب مني؟»

«أن تتحدثي إليها.»

«أتحدث إليها؟»

«أريها... قولي لها... اجعليها تفهم أن الجريدة كانت دائمًا شيئًا خارج حياتك، لم تمسّك، ولا داعي لأن تمسّها هي. فقط دعيها

تسمعك... تراقبك... تكون معك... ستَرى... لا بد أن ترى...»

ترددت أمه. «ولكن إن كانت قد أعطتك أسبابها...؟»

«فلتعطك إياها أنتِ! إن استطاعت، حين تراكِ...» وأزاحت يده، في نفاد صبر، تمثال المصارع مرة أخرى. «أنا أهتم اهتمامًا موجعًا،» اعترف.

٢

على عتبة بيت آل فينو، كاد شعور مفاجئ بعبثية المحاولة يردّ السيدة كوينتن إلى عربتها، لكن الباب كان قد بدأ ينفتح، وقادتها خادمة ظنّت أن الآنسة فينو في البيت إلى غرفة الجلوس الكئيبة. كانت من الغرف التي لا يُرى فيها أحد من أهل البيت إلا بعد العشاء أو بعد وفاة. وكانت الكراسي والموائد تبدو كأقارب فقراء سدّدوا ثمن إقامتهم بعمر طويل من النفع المتجهّم، كأنها اتحدت ضد الغرباء في مؤامرة عابسة من عدم الراحة. ولأن السيدة كوينتن شديدة التأثر بهذه الأمور، فقد قرأت الفشل في كل زاوية من زوايا التنجيد. وكانت أسمى من الخطأ المبتذل في الظن بأن هوب فينو قد يمكن إقناعها بالزواج من آلان لأجل ماله، لكن بين هذا الافتراض

والاستنتاج بأن خيال الفتاة قد تمسّه الإمكانات الأرقى للثراء، يقرّ الذوق الرفيع بوجود فرق. غير أن أثاث آل فينو كان يقابل هذا المنطق بغلظة نقوش خشب الجوز الأسود؛ وكان في هيئته ما يوحي بأن أصحابه على القدر نفسه من التصلب. لم تكن الغرفة تُظهر شيئًا من المحاولات الحديثة للتخفيف، ولا ستائر تعتذر عن الحقائق. وكانت السيدة كوينتن جالسة مؤقتًا على أريكة قوطية مكسوّة بقماش أخضر مضلّع، يستحيل أن تقوم معها أي علاقة أوثق، فاستنتجت أنه لو احتاجت السيدة فينو مقعدًا آخر بالحجم نفسه، لانطلقت في هدوء تبحث عن مثيل للذي تتهالك عليه زائرتها الآن.

وفي خيال السيدة كوينتن، كانت آراء هوب فينو، التي أفضت بها بعد قليل بصوت شاب صافٍ من الطرف المقابل من الأريكة القوطية، تحمل طابع محيطها. كان عقل الفتاة كمكان واسع مضيء خالٍ، مؤثَّث بقلة من الأحكام المسبقة الضخمة، لم يُقصد بها راحة أحد، لكنها أثقل من أن تتحرك بسهولة. أما عقل السيدة كوينتن نفسها، الذي ظلت صاحبته تتحرك فيه زمنًا طويلًا، في شبه عتمة فنية مدروسة، وسط تعقيد رقيق من الأحاسيس، فقد بدا بالمقارنة ضيقًا مزدحمًا فجأة. وإذ لجأت إليه من وهج صراحة الفتاة، وجدت المرأة

الأكبر نفسها تتعثر في عتمة لم تألفها. وتحوّل قلقها إلى ضيق من محدّثتها.

كانت السيدة كوينتن تعلم أن قيمة أي حجة في لحظتها تكمن في قدرة العقل الذي توجَّه إليه، وبينما تنفد سهام إقناعها على صخرة عناد الآنسة فينو، قالت في نفسها إنه ما دام السلوك تحكمه العواطف لا الأفكار، فإن الأقوياء حقًّا هم الذين يحسبون أحاسيسهم آراء. ومن هذه الزاوية كانت الآنسة فينو قوية بلا شك: فقد كانت نبرة صوتها، حين قالت، حاسمة لا تخطئها الأذن:

«إنه مستحيل.»

جاء رد السيدة كوينتن مشوبًا بأقل قدر من الاستياء الأنثوي: «قلت لآلان إنه حيث فشل هو، فلا أمل في أن أترك أنا أي أثر.»

وضعت هوب فينو يدها على يد زائرتها في حركة تكاد تكون خاشعة. «عزيزتي السيدة كوينتن، الأثر الذي تتركينه هو بالذات ما يؤكد الاستحالة.»

انتظرت السيدة كوينتن لحظة، فهي تعرف تمام المعرفة أنه حين تتعلق المسألة بمشاعرها لا يمكن الاعتماد على حس الفكاهة لديها.

«أأترك أثرًا بغيضًا إلى هذا الحد؟» سألت أخيرًا، بابتسامة كأنها تترك للفتاة الخيار بين معنيين.

«بل تتركين أثرًا جميلًا جدًّا! إنه جميل أكثر من اللازم، حتى إنه يحجب حكمي.»

نظرت إليها السيدة كوينتن متفكرة. «أيجوز لامرأة أكبر سنًّا، يا ترى، أن تقول لك إنه في سنّك ليس دائمًا من سوء الحظ أن يُحجب ما يسمّيه المرء حكمه حجبًا مؤقتًا؟»

احمرّت الآنسة فينو. «أحاول ألا أحكم على الآخرين...»

«أنتِ تحكمين على آلان.»

«آه، هو ليس من الآخرين،» تمتمت بنبرة مسّت المرأة الأكبر.

«وتحكمين على أمه.»

«لا أفعل، لا أفعل!»

ألحّت السيدة كوينتن: «إذن تحكمين على نفسك، كما كنتِ ستكونين في موضعي، وحكمك يدينني.»

«كيف تظنين ذلك؟ لأنني أقدّر الفرق بين وجهتَي نظرنا أجد من الصعب عليّ جدًّا أن أدافع عن نفسي...»

«ضد ماذا؟»

«ضد إغراء أن أتخيل أنني قد أكون مثلك... وأشعر كما أشعر.»

نهضت السيدة كوينتن بتنهيدة. «يا بنيتي، في زماني كان الحب أقل تعقيدًا.» ثم أضافت بعد لحظة: «آلان ابن كامل.»

«آه، هذه مرة أخرى! هذا يزيد الأمر سوءًا!»

«سوءًا؟»

«مثلما تفعل طيبتك، ولطفك، وتساهلك الكبير في أن تدعيني أناقش الأمور معك بطريقة لا بدّ أنها تبدو لك وقاحة تقريبًا.»

لم تخلُ ابتسامة السيدة كوينتن من سخرية. «يجب أن تتذكري أنني أفعل ذلك من أجل آلان.»

«وهذا ما أحبك من أجله!» ردّت الفتاة على الفور؛ ومرة أخرى مسّت نبرتها محدّثتها.

«ومع ذلك تضحّين به، ومن أجل فكرة!»

«أليس من أجل الأفكار أن قُدِّمت كل التضحيات التي كانت تستحق العناء؟»

«قد يضحّي المرء بنفسه.»

ارتفع لون الآنسة فينو. «هذا ما أفعله،» قالت برقة.

أخذت السيدة كوينتن بيدها. «أصدّق أنك تفعلين،» أجابت. «وليس صحيحًا أنني أتكلم من أجل آلان وحده. ربما كان ذلك حالي حين بدأت، أما الآن فأريد أن أترافع عنكِ أنتِ أيضًا، ضدّ نفسك.» توقفت ثم تابعت بنبرة أعمق: «سمحتُ لك، كما تقولين، أن تصارحيني بما في نفسك بعبارات قد تستاء منها بعض النساء، لأنني أردت أن أريك كيف أخذ ميزان النظريات والأفكار والتصورات المجردة عن الحياة، مع مرور السنين، يختلّ، أمام الواقع الفعلي، وأمام الطريقة المخصوصة التي تعرض بها الحياة نفسها علينا، نحن النساء خصوصًا. أن تقرّر سلفًا كيف ينبغي أن تتصرف في ظروف معينة، يشبه أن تقرّر أن تسلك اتجاهًا محددًا وأنت تعبر بلدًا لم تستكشفه. وبعد ذلك نكتشف أنه لا بدّ أن نغيّر مسارنا لتفادي العقبات، ونعبر الأنهار حيث تكون أقل عمقًا، ونسلك الدروب التي مهّدها غيرنا، ونقدّم كل أنواع التنازلات غير المتوقعة. الحياة مصنوعة من التسويات: وهذا ما يأبى الشباب أن يفهمه. لقد عشتُ بما يكفي لأشكّ في أن خيرًا حقيقيًّا جاء يومًا من التضحية بحقائق جميلة في سبيل نظريات أجمل منها. هل أبدو مجادلة؟ لا أدري، قد تكون الخسائر في الحالتين... ولكن حبّ

الرجل الذي نحبه... والطفل الذي نحبه... هذا يعوّض عن كل شيء...»

كانت قد تكلمت برعشة بدا أنها انتقلت إلى اليد التي تركتها الفتاة في يدها. وامتلأت عيناها فجأة بالدموع، لكنها رأت من خلال ضبابها شفتَي الفتاة ترسمان إنكارًا أخيرًا يائسًا:

«ألا ترين أنني لأنني أشعر بكل هذا، يجب ألّا... لا أستطيع؟»

٣

في عصر يوم من أواخر الربيع، دخلت السيدة كوينتن من أبواب متحف المتروبوليتان. كانت تتمشى في المتنزّه، في وحدة يثقلها الإحساس الدائم بمحنة ابنها، وتذكرت فجأة أن أحدًا أضاف لوحة لبلترافيو إلى المجموعة. وكانت من عادات السيدة كوينتن القديمة أن تلتمس في الاستمتاع بالجمال ما يجده أغلب معارفها في صحبة بعضهم بعضًا من تسلية. كان لها أصدقاء قلائل، ولم تكن صحبتهم تسرّها إلا في أمزجتها الأكثر سطحية؛ لكنها كانت تستطيع أن تخدّر القلق بلوحة كما تستطيع بعض النساء تهدئته بقبعة.

وخلال الأشهر الستة التي انقضت منذ زيارتها للآنسة فينو، كانت تحسّ بألم ظنّت نفسها لم تعد قادرة عليه: كما يظل المرء يشعر بألم ذراع مبتورة. كانت تحسب أن كل مراكز الإحساس عندها قد انتقلت إلى آلان، لكنها وجدت نفسها الآن خاضعة لنوع من المعاناة المزدوجة، حيث كان وجعها الشخصي أحدّ لأنه يفصلها عن وجع ابنها. لقد فاجأها آلان: لم تكن تتوقع أن يتلقى صدمة عاطفية بهذه القسوة. وقد عبّر عن خيبته بالصمت والانكباب على العمل بمزيد من الصرامة. ألقى بنفسه في شؤون «الراديتر» بشراسة كادت تظهر آثارها على صفحاتها. لم تكن السيدة كوينتن تقرأ «الراديتر» أبدًا، لكنها استنتجت مما انعكس منها في الصحف الأخرى أنها على الأقل لا تُخضَع لإعادة البناء الأخلاقي التي كانت أحد بديلَي الآنسة فينو.

لم تكلّم السيدة كوينتن ابنها قط عمّا حدث. كانت أسمى من الارتياح الرخيص في الانتقام لإهانته بالتقليل من شأن سببها. كانت تعرف أن مثل هذه العزاءات في الأحزان العاطفية كالملح على الجرح. وتجنّب موضوع حاضر بقوة في ذهن كليهما لم يكن إلا أن يؤثر في قرب علاقتهما. كان حضور خفيّ يعوق حرية كلامهما وتفكيرهما. كانت الفتاة دائمًا بينهما؛ ولإخفاء الشعور باقتحامها بدآ يلتقيان أقل. حينئذ قاست السيدة كوينتن مدى عزلتها. ولو أنها تجرأت يومًا على تصوّر

وضع كهذا لانطلقت من النظرية المعتادة بأن ألم ابنها لا بدّ أن يقرّبها منه؛ وهذا بالذات هو العزاء الذي حُرمت منه. فقد امتد صمت آلان إلى ما دون مستوى الكلام، وأمه، وقد غدت عاجزة لا تهتدي إلا بالتخمين، ولم يكن في وسعها حتى أن توائم تعاطفها مع احتياجاته. لم تكن تعرف ما يشعر به: أصبحت تصرفاته عصيّة على التوقّع. وكانت تتساءل أحيانًا أتراها صارت لا تُفهَم عنده أيضًا؛ ولكي تجد لحظة ملجأ من بؤس تلك التخمينات التي ظلت تطاردها، دخلت المتحف الآن.

بدا لها صفّ طويل من اللوحات ذات الألوان الدافئة الهادئة كأنه يستقبلها في هدوء غسق خريفي غني. كان يمكن أن تكون تمشي في غابة مسحورة لا يُسمع فيها وقع خطى الهمّ. وكان الإحساس بالعزلة عميقًا حتى إنها حين التفتت بعد تأمل طويل في لوحة بلترافيو الجديدة، فوجئت بأنها ليست وحدها.

كانت شابة قد نهضت من الأريكة الوسطى، وقفت كأنها معلّقة في منتصف الطيران حين واجهتها السيدة كوينتن. وكانت المرأة الأكبر أول من استعاد رباطة جأشها.

«الآنسة فينو!» قالت.

تقدمت الفتاة وقد احمرّ وجهها. وحين تلاشى الاحمرار لاحظت السيدة كوينتن فيها تغيّرًا. كان في مظهرها دائمًا شيء مشرق كالراية، أما الآن فقد خبا إشراقها، وبدا مظهرها كراية منكّسة إلى منتصف السارية. وفي حرج مفاجأة سرٍّ لا شك أن صاحبته لا تدرك أنها تفضحه، عادت السيدة كوينتن على عجل إلى لوحة بلترافيو.

«جئت لأرى هذه،» قالت. «إنها جميلة جدًّا.»

جالت عين الآنسة فينو بلا اكتراث على امتدادات المنظر الطبيعي الزرقاء الغامضة. «أظن ذلك،» وافقت، ثم أضافت بعد وقفة أخرى متردّدة: «أنتِ تأتين إلى هنا كثيرًا، أليس كذلك؟»

«كثيرًا جدًّا،» أجابت السيدة كوينتن. «أجد في اللوحات عونًا كبيرًا.»

«عونًا؟»

«أقصد راحة... إن كان المرء متعبًا أو غير سويّ المزاج.»

«آه،» تمتمت الآنسة فينو وهي تنظر إلى الأرض.

«لوحة بلترافيو هذه جديدة، كما تعلمين،» واصلت السيدة كوينتن. «يا لها من خلفية رائعة، أليس كذلك؟ هل هو رسام يهمّك؟»

نظرت الفتاة مرة أخرى إلى اللوحة الداكنة، كأنها في محاولة أخيرة لاستخراج دليل منها إلى عزاءات الفن. «لا أدري،» قالت أخيرًا؛ «أخشى أنني لا أفهم في اللوحات.» اقتربت من السيدة كوينتن ومدّت يدها.

«أنتِ ذاهبة؟»

«نعم.»

نظرت إليها السيدة كوينتن. «دعيني أوصلكِ إلى بيتك،» قالت باندفاع. كانت تحسّ، وقد باغتتها المفاجأة، أنه لا يمنحها أي سرور، بعد كل شيء، أن ترى كم عانت الفتاة.

تصلّبت الآنسة فينو بشكل ملحوظ. «شكرًا؛ سأستمتع بالمشي.»

أسقطت السيدة كوينتن يدها بحركة انسحاب مماثلة، وكأن موجة عداء عابرة جرفت المرأتين وأبعدت إحداهما عن الأخرى. ثم، وبينما كانت السيدة كوينتن تنحني قليلًا وتتجه من جديد إلى اللوحة، شعرت بلمسة مفاجئة على ذراعها.

«سيدة كوينتن،» تلعثمت الفتاة، «أنا جئت إلى هنا فعلًا لأنني رأيت عربتك.» غاصت عيناها ثم رفرفتا عائدتين إلى وجه محدّثتها. «لقد كنت تعيسة تعاسة لا توصف!» هتفت.

صمتت السيدة كوينتن. فلو كانت هوب فينو تتوقع ردًّا فوريًّا على ندائها لخابت. كان وجه المرأة الأكبر كحجاب أُسدل أمام أفكارها.

«كثيرًا ما فكرت،» تابعت الفتاة باندفاع، «فيما قلتِه ذلك اليوم الذي زرتني فيه في الخريف الماضي. أظنني أفهم الآن ما كنتِ تقصدين، وما حاولتِ أن تُريني إياه... آه يا سيدة كوينتن،» انفجرت، «لم أكن أقصد أن أقول لك هذا، ولم أحلم به إلا في هذه اللحظة، لكنك تذكرين ما قلتِ، أليس كذلك؟ لا بد أنك تذكرين! والآن وقد لقيتك هكذا، لا أستطيع إلا أن أقول لك إنني أعتقد، أبدأ في الاعتقاد، أنك كنتِ على حق بعد كل شيء.»

كانت السيدة كوينتن قد أصغت دون أن تتحرك، لكنها رفعت الآن عينيها بابتسامة خفيفة. «أتريدين أن أقول هذا لآلان؟» سألت.

احمرّت الفتاة، لكن نظرتها واجهت الابتسامة. «وهل ما زال يهمّه أن يسمعه؟» قالت بجرأة.

لجأت السيدة كوينتن لحظة إلى تفحّص متجدد للوحة بلترافيو؛ ثم التفتت وقالت، بشيء من التردد: «ما زال يهمّه.»

«آه!» انطلقت من الفتاة.

وأثناء هذا التبادل للكلام كانت المتحدثتان قد انجرفتا دون وعي نحو أحد المقاعد. نظرت السيدة كوينتن حولها: كان الحارس الذي ظل يحوم عند الباب قد انتقل إلى القاعة المجاورة، وبقيتا وحدهما بين لوحات فان دايك الفضّية ولوحات هالس القاتمة المتوهجة. جلست السيدة كوينتن على المقعد ومدّت يدها إلى الفتاة.

«اجلسي بجانبي،» قالت.

جلست الآنسة فينو بجانبها. كان الانفعال في المرأتين أشد من أن يُعبَّر عنه بالكلمات. وكانت الفتاة لا تزال ترتجف، وكانت السيدة كوينتن أول من استعاد هدوءه.

«تقولين إنك عانيتِ،» بدأت أخيرًا. «أتظنين أنني لم أعانِ؟»

«كنت أعرف أنك عانيتِ. وهذا ما جعل الأمر أسوأ بكثير عليّ، أن أكون أنا سبب معاناتك من أجل آلان!»

سحبت السيدة كوينتن نفَسًا عميقًا. «ليس من أجل آلان وحده،» قالت. التفتت إليها الآنسة فينو بنظرة تعجب. «ليس من أجل آلان وحده. ذلك الألم تتوقعه كل امرأة وتعرف كيف تتحمله. كلنا نعلم أن أبناءنا لا بدّ أن يواجهوا مثل هذه الخيبات، والمعاناة معهم ليست أعمق الآلام. أعمقها المعاناة بمعزل عنهم، بطرق لا يفهمونها.» تنفّست

بعمق. «أريدك أن تعرفي ما أعنيه. كنتِ على حق، في ذلك اليوم، وكنتُ أنا مخطئة.»

«آه،» تلعثمت الفتاة.

واصلت السيدة كوينتن بصوت من الوضوح المتّقد: «كنت أعرف ذلك حينها، حتى وأنا أحاول أن أجادلك، وقد عرفته دائمًا! لم أرد لابني أن يتزوجك قبل أن أسمع أسبابك في رفضه، ثم، ثم تمنيت أن أراك زوجته!»

«آه يا سيدة كوينتن!»

«تمنيت ذلك، لكنني عرفت أنه يجب ألّا يكون.»

«يجب ألّا يكون؟»

هزّت السيدة كوينتن رأسها بحزن، واستمدّت الفتاة الجرأة من هذا النفي الصامت، فصاحت بتدفق جامح للمشاعر:

«أهو لأنك ظننتِني قاسية، عنيدة، ضيقة الأفق؟ آه، أفهم هذا جيدًا! لا بد أن اعتدادي الأخلاقي بدا لك تافهًا جدًّا! فتاة تستطيع أن تضحّي بمستقبل رجل من أجل غرورها الأخلاقي، فقد كان نوعًا من الغرور، وقد أوضحتِ لي ذلك بجلاء كافٍ، كم لا بد أنك احتقرتِني! لكنني لم

أعد تلك الفتاة الآن، حقًّا لم أعد. لست مندفعة، أنا أفكر في الأمور حتى النهاية. وقد فكرت في هذا. أعلم أن آلان يحبني، وأعلم كيف يحبني، وأعتقد أنني أستطيع أن أساعده، لا بالطرق التي تخيلتها من قبل، بل بمجرد أن أحبه.» توقفت، لكن السيدة كوينتن لم تُظهر أي إشارة. «أرى كل شيء الآن على نحو مختلف تمامًا. أرى أي تأثير قد يكون للحب نفسه، وكيف أن إيماني به وحبي له وقبولي به كما هو قد يساعده أكثر من أي نظريات وأي حجج. كان يمكن أن أرى هذا منذ زمن بالنظر إليك، كما كان يقول لي كثيرًا، حين أرى كيف أبقيتِ نفسك بعيدة عن عمل السيد كوينتن وعن... وكنتِ دائمًا الجانب الجميل من الحياة بالنسبة لهما، وحفظتِ إيمانهما حيًّا رغمًا عنهما، لا بالتدخل أو الوعظ أو الإصلاح، بل بمجرد حبّهما والوجود إلى جانبهما...» نظرت إلى السيدة كوينتن بنبالة صافية. «ليس الأمر أنني أهتم بالمال، كما تعلمين؛ فلو كنت أهتم به لخفت...»

«ستهتمين به مع الوقت،» قالت السيدة كوينتن فجأة.

تراجعت الآنسة فينو وسحبت يدها. «مع الوقت؟»

«نعم؛ حين لا يبقى شيء آخر.» حدّقت لحظة في اللوحات. «يا طفلتي المسكينة،» انفجرت، «لقد سمعتُ كل ما تقولينه مرارًا من

قبل!»

«سمعتِه؟»

«نعم، من نفسي. شعرت كما تشعرين، وجادلت كما تجادلين، وتصرفت كما أريد أن أمنعك من التصرف، حين تزوجت والد آلان.»

بدا أن الرواق الطويل الخالي يردّد صدى هتاف الفتاة المذعور: «آه يا سيدة كوينتن...»

«اصمتي؛ دعيني أتكلم. أتظنين أنني كنت سأفعل هذا لو كنتِ من ذلك النوع من الفتيات الحمقاوات، ورديّات الوجنات، اللواتي كان ينبغي له أن يتزوج إحداهن؟ إنني لأنني أراكِ حيّة كما كنت، تنبضين بالمعتقدات والطموحات والطاقات كما كنت، لا أستطيع أن أراكِ حبيسة الجدران، كما كنتُ أنا، دون أن أمدّ يدًا لإنقاذك!» جلست تحدّق أمامها بصلابة وعيناها على اللوحات، تتكلم بالنبرة المنخفضة المندفعة لمن يحاول أن يضغط معنى عمر كامل في بضع جمل لاهثة.

«حين التقيت بوالد آلان،» تابعت، «لم أكن أعرف شيئًا عن... عمله. التقينا خارج البلاد، حيث كنت أقيم مع أمي. كان ذلك قبل ست وعشرين سنة، حين كانت «الراديتر» أقل سوء سمعة مما هي عليه الآن. كنت أعرف أن زوجي يملك جريدة، جريدة كبيرة، ولا شيء

أكثر. لم أرَ في حياتي عددًا من «الراديتر»، ولم يكن عندي أي فكرة عمّا تمثله، في السياسة أو في غيرها. تزوجنا في أوروبا، وبعد بضعة أشهر جئنا نعيش هنا. كان الناس قد بدأوا يتحدثون عن «الراديتر». كان زوجي قد اشتراها، حين ترك الجامعة، بمال تركه له عمٌّ عجوز، ولم يكن الجمهور في البداية سوى فضوليّ يريد أن يرى ما الذي سيصنعه شاب طموح نشيط بلا أي خبرة صحفية من تجربته. واكتشفوا أول ما اكتشفوا أنه سيجني منها مالًا كثيرًا. واكتشفت أنا ذلك أيضًا. كنت سعيدة جدًّا بطرق أخرى فلم يكن الأمر يفرق كثيرًا في البداية؛ وإن كان من اللطيف أن أستطيع مساعدة أمي، وأن أكون كريمة ومحسنة، وأن أعيش في بيت جميل، وأرتدي الأثواب الفاخرة التي كان يحب أن يراني فيها. ومع ذلك لم يكن لهذا وزن حقيقي، كان وزنه ضئيلًا حتى إنني حين عرفت يومًا ما هي «الراديتر»، كنت سأخرج إلى الشوارع حافية القدمين ولا أعيش ساعة أخرى على المال الذي تدرّه...» انخفض صوتها، وتوقفت لتضبطه. لم تتكلم الفتاة إلى جانبها ولم تتحرك. «لن أنسى ذلك اليوم أبدًا،» بدأت من جديد. «كانت الجريدة قد عرّت فضيحة عائلية، سرًّا بائسًا نازفًا، كان اثنا عشر شخصًا تعيسًا يكافحون لمنع نشره، وكان

سيبقى بعيدًا لو لم يكن زوجي... آه، لا بد أن تخمّني الباقي! لا أستطيع المتابعة!»

شعرت بيد على يدها. «لا يجب أن تتابعي يا سيدة كوينتن،» همست الفتاة.

«بل يجب، يجب! لا بد أن تفهمي.» سحبت نفسًا عميقًا. «زوجي لم يكن مثل آلان. حين عرف شعوري حيال الأمر فوجئ في البداية، لكنه بدأ تدريجيًّا يرى، أو هكذا خُيّل إليّ، بشاعته. وعلى أي حال رأى كم أتألم، وعرض أن يتخلى عن الأمر كله، وأن يبيع الجريدة. لم يكن ذلك ممكنًا دفعة واحدة طبعًا، وقد أفهمني ذلك، فقد وضع كل ماله فيها ولم تكن له موهبة خاصة في أي عمل آخر. كان صحفيًّا بالفطرة مثل آلان. كان التخلي عن الجريدة تضحية كبيرة بالنسبة له، لكنه وعد أن يفعل ذلك مع الوقت، حين تُتاح فرصة جيدة. وفي الأثناء، بالطبع، أراد أن ينميها وأن يزيد توزيعها، ولكي يفعل ذلك كان عليه أن يستمر على النهج نفسه، وقد أوضح لي ذلك. رأيت أننا في حلقة مفرغة. فالجريدة لكي تُباع جيدًا كان لا بد أن تصبح أكثر فأكثر بغيضة ومشينة. تمردت في البداية، لكن بطريقة ما، لا أستطيع أن أقول لك كيف كان ذلك، بعد ذلك التنازل الأول بدت الأرض كأنها تنهار تحتي: ومع كل صراع كنت أغوص أعمق.

وبعدها، بعدها وُلد آلان. كان رضيعًا هشًّا جدًّا لدرجة أن الأمل في إنقاذه كان ضئيلًا. لكن المال فعلها، مال الجريدة. أخذته إلى الخارج لأعرضه على أفضل الأطباء، وأخذته إلى مناخ دافئ كل شتاء. وفي الصيف الحار أوصى الأطباء بهواء البحر، فاشترينا يختًا وكنا نبحر كل صيف. كنت أدين بحياته لـ«الراديتر». وحين بدأ يقوى، تكوّنت العادة، عادة الترف. لم يعد قادرًا على العيش من غير الأشياء التي اعتاد عليها دائمًا. كان يذبل في الهواء الفاسد؛ ويتهاوى تحت الرتابة وقلة الراحة؛ ويزدهر بالتنوع والتسلية والسفر وكل أنواع الجدّة والإثارة. وكانت تلك الأم الحاضنة، التي لا ينضب عطاؤها، حاضرة لتمنحه كل ما أريده له!

«لم يقل زوجي شيئًا، لكنه لا بد أنه رأى إلى أين تسير الأمور. لم يعد هناك حديث عن التخلي عن «الراديتر». لم يعاتبني قط على تناقضي، لكنني ظننت أنه لا بد يحتقرني، وهذا الظن جعلني متهوّرة. عزمت على تجاهل الجريدة تمامًا، وعلى أن آخذ ما تعطيه كأنني لا أعرف من أين يأتي. ولتبرير ذلك اخترعت نظرية أن المرء يستطيع، إن صحّ التعبير، أن يطهّر المال بوضعه في أوجه خير. تصدّقت بالكثير، ولم أُسرف على نفسي كثيرًا في البداية. وكل مال لم يُنفق على آلان حاولت أن أفعل به خيرًا. لكن تدريجيًّا، مع نموّ ولدي، صارت

المشكلة أكثر تعقيدًا. كيف كنت سأحمي آلان من التلوث الذي تركته يعيش في أجوائه؟ لم أستطع الوعظ بالقدوة، ولا أن أُظهر أباه عبرة، ولا أن أندد بالمال الذي نعيش منه. كل ما استطعت فعله أن أخفي القبح الداخلي للحياة بجعلها جميلة من الخارج، وأن أبني جدارًا من الجمال بينه وبين حقائق الحياة، وأحوّل أذواقه واهتماماته إلى وجهة أخرى، وأُخفي «الراديتر» عنه كما تُخفي امرأة مبتسمة في حفل راقص سرطانًا في صدرها! وقبيل دخول آلان الجامعة مات أبوه. حينئذ رأيت الطريق مفتوحًا. كنت أحببت زوجي، ومع ذلك تنفّست أول نفس حرّ منذ سنين. فقد تُركت «الراديتر» لآلان مباشرة، ولم يكن على وجه الأرض ما يمنعه من بيعها حين يبلغ سنّ الرشد. ولم يكن هناك عذر لعدم بيعها. كنت قد ربّيته على الاعتماد على المال، لكن الجريدة منحتنا من المال ما يكفي لإشباع كل أذواقه. وأخيرًا صرنا نستطيع أن ننقلب على الوحش الذي أطعمنا. شعرت بفرح وحشي من هذه الفكرة، وكدت لا أحتمل الانتظار حتى يبلغ آلان رشده. لكنني لم أكلّمه قط عن الجريدة، ولم أجرؤ على الحديث عنها الآن. حال بيني وبين الحديث معه خجل زائف، واعتقاد غامض بأنه لا يعرف شيئًا. قلت أنتظر حتى يبلغ الحادية والعشرين، وعندها نصير أحرارًا.

«انتظرت، وجاء اليوم، وتكلمت. تستطيعين تخمين جوابه، أظن. لم تكن عنده أي نية لبيع «الراديتر». لم يكن المال هو ما يهمه، بل المهنة هي التي أغرته. كان صحفيًّا بالفطرة، وكان طموحه، منذ أن وعى، أن يواصل عمل أبيه، وأن ينمّيه، وأن يتفوق عليه. لم يكن في العالم شيء بمثل إثارة الصحافة الحديثة. لم يستطع أن يتخيل أي نوع آخر من الحياة لا يقتله مللًا. جريدة مثل «الراديتر» يمكن أن تصبح من أكبر القوى على وجه الأرض، وهو يحب القوة، وينوي أن ينال منها كل ما يستطيع. أصغيت إليه كما في غيبوبة. لم أجد كلمة أقولها. كان أبوه يعرف وخز الضمير، أما هو فلم يكن لديه مثل هذا الوازع. أدركت في الحال أن الجدال لا فائدة منه. لا أدري أحاولتُ حتى أن أرجوه، فقد كان متوقّد الذكاء، صلبًا، عصيًّا على النفاذ إليه! ثم رأيت أنه، على أي حال، ما صنعته أنا: مخلوق تنازلاتي وتواطؤاتي وتهرّباتي. كان ذلك الثمن الذي دفعته من أجله، أبقيته معي بهذه الكلفة!

«حسنًا، لقد أبقيته معي على أي حال. كان ذلك هو الشعور الذي بقي. كان ولدي، ابني، ملكي وحدي، إلى أن تأخذه امرأة أخرى. وفي الأثناء كان على الحياة القديمة أن تستمر كما تستطيع. تخلّيت عن الصراع. فإن كان عصيًّا عليّ في ذلك الجانب، فقد ظل قريبًا مني في جوانب

أخرى. لقد كان دائمًا ابنًا كاملًا. نمت أذواقنا معًا، واستمتعنا بالكتب نفسها واللوحات نفسها والناس أنفسهم. كان يكفيني أن أنظر إليه من جانبه لأرى الجانب الذي كان يخصّني منه حقًّا. وفي البداية كنت أظل أفكر في الجانب الآخر المرعب، لكن الانطباع تلاشى تدريجيًّا، وأبقيت ذهني بعيدًا عنه، كما يفعل المرء مع تشوّه في وجه من يحب. ظننت أنني أبرمت آخر تسوية لي مع الحياة، وأنني اهتديت إلى طريقة عيش تدوم ما بقي من عمري.

«ثم التقى بك. كنت دائمًا مستعدة لزواجه، لكن ليس من فتاة مثلك. كنت أظنه سيختار فتاة رقيقة لا تحاول أبدًا التنقيب في خباياه، فقد كان يكره النساء ذوات الأفكار! لكن ما إن رأيتك حتى عرفت أن الصراع سيبدأ من جديد. إنه أقوى بكثير من أبيه، ومفعم بأشد القناعات فظاعة. وله شجاعة التمسك بها أيضًا، وقد رأيتِ في العام الماضي أن حبه لك لم يجعله يتزعزع قط. إنه يؤمن بعمله، ويعبده، وهو كصنم بشع يقدّم له قرابين بشرية! ما زال يحبك، وقد كنت صادقة معك، لكن حبه لن يغيّره. أنتِ من سيكون عليها أن تتغير، أن تموت تدريجيًّا كما متُّ أنا، حتى لا تبقى فيها إلا نقطة حية واحدة. آه، لو مات المرء كليًّا لكان الأمر بسيطًا! لكن شيئًا يستمر، تذكّري ذلك، نقطة واحدة، عصبًا موجوعًا يحمل الحقيقة، لا يكفّ عن الألم كلما

لامسته. قد تخدّرينه من حين لآخر، لكن لمسة توقظه من جديد، كما أيقظه وجهك فيّ. يبقى دائمًا من ذواتنا القديمة ما يكفي لأن نتألم...»

وقفت ووجهت إلى الفتاة وجهها فجأة. «ماذا أقول لآلان؟» قالت.

جلست الآنسة فينو بلا حراك وعيناها في الأرض. كان الغسق يهبط على الرواق، غسق بدا كأنه لا ينبعث من القبة الزجاجية في الأعلى بقدر ما ينبعث من أعماق شفقية تنسحب فيها وجوه اللوحات. ودوّت خطوات الحارس في الممر على نحو ينذر بشيء. وحين رفعت الفتاة رأسها كانت وحدها.

(انتهت)